النظم في النحو والصرف لدى علماء غرب أفريقيا: الشيخ عمر الوالي زاريا نموذجا

د. إلياس عباس

خلاصة:

تتناولت هذه المقالة النظم في النحو والصرف في غربي أفريقيا، مخصصة نموذجين للشيخ عمر الوالي زاريا وهما «موضحة الإبدال على سهولة بلا إشكال» في الصرف، و«علق النفيس على جيد نحوي محقق» في النحو. وقد لمحت المقالة عن إسهامات العلماء البارزين في غرب أفريقيا أمثال عبد الله بن فودي وغيره الذين أسهموا في هذين المجالين إسهاما كبيرا. وتناولت المقالة تاريخ عمر الوالي، ثم ناقشت أخيرا إسهاماته في الصرف بشكل أوسع لأنه فيه يرى أبرز إسهاماته، وفي النحو بشكل ضيق. وأخيرا أشادت المقالة بأهمية تناول هذين الكتابين في المدارس والمعاهد العلمية، وتقريرهما في المقررات العلمية للاستفادة بثمراتهما اليانعة التي تركت يعلوها الغبار وتقرضها الأرضة. ودعت المقالة إلى إحياء أمثال هذه التراث ودراستها لما تضمنت من روح الطبيعة الإفريقية الساكنة الدمثة التي لا تظهر إلا في مصنفات أمثالها.

مقدمة:

حفلت منطقة غرب أفريقيا، وخاصة في القرن التاسع عشر بعدد كبير من العلماء والأدباء الذين تركوا تراثا هائلا في شتى العلوم والفنون المتعلقة باللغة العربية وآدابها، وفي العلوم الإسلامية. وهذه الإنتاجات هي المقررات العلمية التي اعتمدها طلاب ذلك الجيل بل حتى الجيل الذي جاء بعده قبيل الاستعمار، بالإضافة إلى إنتاجات سابقيهم أمثال ابن مالك وجلال الدين السيوطي. ومن هؤلاء العلماء الشيخ عمر الوالي زاريا الذي عاش ما بين عام ١٨١٢ و ١٨٩٧ الميلاديين ألف هذا العالم كتابين في النحو: أحدهما موضحة الإبدال على سهولة بلا إشكال، وثانيهما العلق النفيس على جيد النحوي المحقق. كتب الأول في الصرف والثاني في النحو.

والذي دفع الباحث إلى الكتابة عن هذا الموضوع ما لاحظ لإنتاجات هؤلاء العلماء من القيم العلمية والميل نحو التخصص، وخاصة في هذين الكتابين، ما ليس لكثير غيرهم.. وهذا بلا شك في حاجة إلى الإثارة والبعث لأنه ابتكار لم يتحقق إلا لقليل من علماء ذلك العصر. ولاحظ كذلك أن إقبال الطلاب لهذه الإنتاجات القيمة في هذا العصر الحديث قد انحط انحطاطا كبيرا. وهذا يؤدي إلى نسيانها والرمي بها وراء الحائط. ومن أجل ذا وذاك رأى الباحث أن يقدم هذه المقالة لأهداف منها: لفت الأنظار إلى هذه الآثار القيمة، وخاصة هذين الكتابين، والكشف عن قيمة هذه الآثار عن طريق بيان منهج كاتب هذين الكتابين وأسلوبه وبيان مضمونهما، والحث على تقرير دراستها في المعاهد العلمية بعد شرحها وتزليل صعابها. وضع الباحث هذه المقالة في ثلاثة عناصر والخاتمة. أولها نظم النحو والصرف في غرب أفريقيا، وثانيها نبذة تاريخية عن عمر الوالي زاريا، وثالثها قيمة كتابيه: موضحة الإبدال وعلق النفيس في الدراسة النحوية والصرفية، وأخيرا الخاتمة.

نظم النحو والصرف في غرب أفريقيا

يقصد بغربي أفريقيا المنطقة التي تقع بين بحيرة تشاد شرقا والمحيط الأطلسي غربا، وتحدها من الجنوب المناطق الاستوائية، ومن الشمال المناطق الجنوبية للصحراء، وتقع بين خطي عرض ١٧،٩ درجة شمال خط الاستواء(عبد الصمد عبد الله محمد:ص:١٠-١١). و تعرف هذه المنطقة قديما ببلاد السودان.

ونشر اللغة العربية وثقافتها في هذه المنطقة يرجع إلى الصلة القديمة التي بين شمال إفريقية وغربها عن طريق التجارة قبل الإسلام وبعده. وهذا يمثل المرحلة الأولى لثبوت هذه

الثقافة ونشرها. فبعد انتشار الاسلام في بلاد المغرب العربي أو شمال إفريقية نتيجة الجهد الجاهد الذي قام به القائد الإسلامي المقدام عقبة بن نافع في فتوحات إسلامية استولى فيها على مصر سنة عام ٦٤٠م، وعلى طرابلس عام ٦٤٧م، وعلى قدامس ففزان فكوار عام ٤٦ه/٦٦٦م، وعلى القيروان عام ٦٧٠م، وعلى مملكة غانة بجنوب الصحراء عام ٦٠ه، بدأت المرحلة الثانية لتوطيد العلاقة بين المشرق العربي وشمال إفريقية وغربها، وهي المرحلة الثانية كذلك لبث الثقافة العربية ونفوذها في أقطار بلاد أفريقيا. والمرحلة الثالثة هي مرحلة الإصلاحات الداخلية لنشر الإسلام وبث نفوذه في شمالي وغربي القارة عن طريق تشكيل إداري منظم، وذلك بتأسيس الدول المختلفة ابتداء من دولة الأدارسة فالأغالبة فالعبيدية فالمرابطين فالموحدين إلى الدولة العلوية في المغرب العربي. كما تأسست دولة مالي وصنغي والدولة العثمانية بالإضافة إلى دولة غانة القديمة التي أغار عليها المرابطون وقامت على أنقاضها دولة مالي في بلاد السودان. وكل هذه الدول قامت بجهود جبارة في ثبوت الربط الديني الإسلامي ونشر الثاقفة العربية في المغرب العربي وبلاد السودان، كما ساعد على توثيق العلاقة الاجتماعية بين الجماعات المختلفة عن طريق الاختلاط الديني والتجاري والتزاوج والهجرة (محمد صالح حسين: ١٩٨٧م: ص ٩٧-١١٨).

وبالنظر إلى مصادر الحركة اللغوية النحوية في بلاد السودان – غرب أفريقيا فمنطلقها الأول وفود علماء الأندلس إلى البلاد الشرقية وإلى المغرب- شمال إفريقية، حيث قامت دولة المرابطين التي انضم إلى أهلها الكثير من علماء الأندلس وكانت بينها وبين التكرور علاقة وثيقة وبفضل هذه الدولة وعلى منهجها العلمية تصدرت الحركة اللغوية النحوية إلى بلاد السودان، وبهذا كانت الكتب اللغوية النحوية التي ألفها علماء الأندلس هي السائدة على المعاهد العلمية في غرب إفرقيا. حيث درسها علماء المنطقة دراسة واعية، وحفظوا كثيرا منها وشرحوها وعلقوا عليها ونظموا في مختلف المجالات اللغوية النحوية على منوالها (محمد صالح حسين: ١٩٨٧م: ص ١١٩-١٣٥).

وأشهر المدن القديمة التي تمركزت فيها مراكز علمية مشهورة بالمدارس النحوية في بلاد السودان هي جني وغاوو وأغدس وتمبكتو وكنو وغندو وكتسينا وزكزك. وأشهر الكتب النحوية التي تناولوها دراسة وحفظا وشرحا وتعليقا وانتحالا هي (محمد صالح حسين: ١٩٨٧م: ص ٦٩-٧٠) :

١) ألفية ابن مالك
٢) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك
٣) الفريدة الألفية للسيوطي
٤) ملحة الإعراب للحريري
٥) الآجرومية لابن آجروم

هذه المصادر تشمل الأساس الفكري والمادي في بناء حركة علماء هذه المنطقة دراسة وفهما وحفظا وتعليقا وتأليفا ونظما. (محمد صالح حسين: ١٩٨٧م: ص ٩٧-١١٨).

ومن أشهر علماء غرب أفريقيا القدامى الذين صنفوا في أصول النحو وفنونه وفروعه العلماء الآتي ذكرهم (محمد صالح حسين: ١٩٨٧م: ص ٢٣٠-٣٠٩) :

١) الشيخ أحمد بابا التنبكتي - صاحب المنح الحميدة في شرح الفريدة.
٢) خالد الموسوي السوقي - صاحب تحفة الطالب في التصريف
٣) العالم محمد يحيى بن محمد المختار – نظم الآجرومية
٤) العالم أحمد بن أبريك الواجد الكنتي – صاحب منظومة في النحو
٥) العالم محمد بن عبد الله القنوتي – صاحب المقصد المحمود على تحفة المودود نظم المقصور والممدود
٦) الشيخ عبد الله بن فودي – صاحب مؤلفات نحوية وصرفية منها «البحر المحيط» في النحوي ، «حصن الرصين» في الصرف
٧) الشيخ الأمير محمد بللو – صاحب نظم العوامل
٨) الشيخ محمد بن الحاج عبد الرحمن البرناوي- صاحب مفيد الطلاب في النحو
٩) العالم محمد بن صالح الفلاتي – صاحب مروي الصدي النافع للطلاب في علم التصريف
١٠) الشيخ عمر الوالي زاريا – صاحب موضحة الإبدال على سهولة بلا إشكال

والملحوظ أن جل الكتب النحوية التي وضعها هؤلاء العلماء الأعزاء

منظوم، لأن مقصدهم تيسير العلوم النحوية التي كثيرا ما تعتبر عويصة المنال. منها ما هو منظوم عن أصل منثور. ومنها منظوم أصلا. و الجدير بالذكر أن هذه المصنفات هي المقررات النحوية والصرفية في المعاهد والمدارس العلمية بالإضافة إلى المقررات المذكورة أعلاه في تلك الآونة إلى نزوح المستعمرين الذين قطعوا حبل الوصال بين تلك الثقافة الشمالية والثقافة الغربية، ثم صبغوها بصبغة جديدة أرغمت المعاهد على ترك تلك المقررات واعتناق غيرها، الأمر الذي أغفل أهل غرب أفريقيا عن أهميتها إلا قليل منها لا يزال منال المعاهد التقليدية والمدارس النحوية، كألفية ابن مالك. ومن المنظومات المغفولة عنها هذان المصنفان: موضحة الإبدال على سهولة بلا إشكال، وعلق النفيس على جيد النحوي المحقق للشيخ عمر الوالي زاريا.

نبذة تاريخية عن عمر الوالي زاريا

مولده ونشأته:

هو عمر بن أحمد بن عمر بن أبي بكر بن محمد الفاتح، المعروف بعمر الوالي زارايا. والوالي لقب لمنصب الإدارة الذي تولاه في إمارة زكزك. وهذا المنصب كما أشار به الشيخ نفسه في كتابه المسمى «بؤبؤ» (محطوط: ٤) أحد أصحاب ولايات الشرع الستة، وهي: القضاء، والشرطة، والمظالم، والرد، والمدنية، والسوق. وأوضح في الكتاب أن من يطلق عليه اسم الوالي بدون قيد في عرف إمارة زكزك اثنان: من له ولاية المظالم، ومن له ولاية الرد، ثم فصل ذلك تفصيلا في غاية الوضوح والإبانة.

ولد الشيخ عمر الوالي حوالي سنة ١٨١٢م بمسو، في ولاية بوشي في نيجيريا، ومسو من مدن مملكة برنو حينذاك، وهي أحد أشهر الممالك الإفريقية. وينتسب عمر إلى أسرة عريقة وأصيلة النسب. والمأثور عليه تاريخيا أن عمر ينتسب لقبيلة فلاتة من مملكة برنو، وكان أجداده أصلا خرجوا من بغداد في العراق، وإن دل هذا الخبر على شيء فإنما يدل على أن عمر ذو أصالة عربية عريقة(عبد القادر بللو، محطوط: ٦-٨).

توليته لمنصب والي مدينة زكزك:

وبعد وفاة أحمد دخل عمر في رعاية عمه «أرطو» الذي ولى منصب غلاديم، ثم ولى محمدٌ الثاني؛ أميرُ زكزك عمرَ منصبَ الوالي، بأمر أمير المؤمنين خليفة الدولة العثمانية حينئذ.

تعلمه وشيوخه:

لقد بذل عمر الوالي عنايته كلها منذ نشأته في طلب العلم. فحفظ القرآن الكريم قبل بلوغه، وتتلمذ على أبيه أولا قبل اتصاله بمعاهد علمية خارجية ثانيا، تعلم من أبيه الدراسات الإسلامية والعربية المختلفة. أما في الخارج فقد أخذ العلم من علماء عصره العباقرة في زاريا، ومنهم مَالَمْ يَايَ وَسَلَنْكِي مَالَمْ سَادَ، كما تعلم في زاوية الشيخ عثمان بصكتو، وفي معهد مَالَمْ تُكُرْ (طَنْ بِنْتَ) الذي تزوج الشيخ عمر الوالي من ابنته بصكتو ، واستفاد كثيرا من معهد مَالَمْ مُحْتَسِبْ بصكتو قبل انتقاله إلى برنو ليتعلم من طالب لمحمد الفاتح (عبد القادر بللو، محطوط: ١٨-١٩).

منزلته العلمية وشهرته:

كانت شهرة عمر الوالي ساطعة في زمن إمارة مالم محمد الثاني لزكزك، من سنة ١٨٤٦ إلى سنة ١٨٦٠ الميلادية. وهذه الشهرة في بادئ أمرها لم تخرج من حيز العلم والتعليم. ثم أسس معهده العلمي في زاريا في القرن التاسع عشر. وكان هذا المعهد من أشهر معاهد العلم والثقافة. وموقعه الآن في أَلْبَرْكَاوَ، أو (فَمْفَنْ مَكَامَا) كما يدعى أحيانا (عبد القادر بللو، محطوط:١٩).

ومن أظهر الآثار على تفوقه شرحه لأبيات الشيخ عبد القادر بن مصطفى، التي أورد فيها مسائل يريد بها الإلغاز، وكان الشيخ عبد القادر بن المصطفى حينئذ فريد زمانه، ومفتي الدولة العثمانية بصكتو. فهو عالم نحرير وقرع نجيب كما وصفه الشيخ عمر(شرح مسائل الشيخ عبد القادر بن المصطفى، محطوط: ٨).

وكان دأبا مستمرا للدولة العثمانية أن يفد إلى عاصمتها بصكتو آنذاك وفود من الإمارات المنتمية إليها من دول هوسا القديمة وغيرها، يفدون إليها بمدد من أموال طائلة وعبيد، ويرفق هذه الوفود علماء عباقرة من كل إمارة، يأتون إلى العاصمة لتشكيل

عضوية الندوة السنوية التي تكونها الدولة لحل المشاكل العلمية المطروحة بمجلس العلماء.

وكانت المسألة فى هذه السنة ألغازا طرحها الشيخ عبد القادر بن مصطفى يطلب من أعضاء مجلس الندوة حلها. فقام الشيخ عمر الوالي بحل معاني هذه الألغاز وبيان مسائلها فى حينها قبل حل الندوة، ثم طرح على أعضائها ألغازا طالبهم بحلها. ولما لم يسعف بالإجابة عنها حللها هو نفسه. وقد قام بذلك كله فى أبيات منظومة ومقدمتها (شرح مسائل الشيخ عبد القادر بن المصطفى، محطوط: ٨):

يقول فقير نجل أحمد عرفا
بوال ولكن اسمه عمر اعرفا
أخص ثنائي بالإله مصليا
على معدن الأسرار والذ له قفا
وبعد فإني إذ وقفت على مسا
ئل القرم عبد القادر ابنم مصطفى
يريد بها الألغاز أوقفتها على
أولى العلم كل ما أجاب ولا شفا
وما زلت أرجو الله فى كشفها لأن
وقفت على أصل لها فانجلى الخفا
فهذا بعون الله كشف جميعها لأن
أكفى الإخوان ذا الغم والجفا

مؤسساته العلمية :

أسس الشيخ عمر الوالي ثلاث مدارس قبل وفاته. أسس الأولى منها فى مدينة زاريا كما سبق ذكره، أسسها فى بيته أولا ثم نقلها إلى «أمر» توسيعا لها وإفساحا لمجالها (عبد القادر بللو، محطوط:١٩).

وأسس الثانية فى «قورن والي»، وهي قرية ببلدة مقرفي، إحدى ولايات كادونا المحلية. وقد انتقل إلى قورنوالي فى عهد سيد عبد القادر بن موسى، وقد حدث بينهما خلاف سياسي أدى إلى عزل الشيخ من منصب «والي» فاضطر إلى الهجرة. وقد هجر معه إلى قورن والي عدد كبير من الناس(عبد القادر بللو، محطوط:١٥).

وانتقل مع عبيده ومريديه، فألقى عصى الترحال فى مكان يسمى محلة «والي» داخل قرية «قورنوالي». ثم سميت القرية برمتها بلقبه بعد وفاته. وترجمة «قَوْرَنْ وَالِي»: مكان هجرة الشيخ عمر الملقبَ بالوالي لإمارة زكزك. فكلمة «والي» لقب للشيخ، ولم يفارقه إلى اليوم، وإليه ينتسب أبناؤه وأحفاده بعده، وأشهرهم القاضي عمر إبراهيم الوالي؛ الأديب المشهور (عبد القادر بللو، محطوط:٢٦).

ثم أسس الشيخ قرية فى منطقة «مقرفي» ونقل إليها كثيرا من عبيده ومريديه وتلاميذه، وتسمى القرية «رحمن والي». وهذه القرية هو الذي أسسها إلا أنه لم يسكنها بعد التأسيس. فعاد فى حينه إلى «قورنوالي» مشتغلا بأعمال التدريس، اشتغالَه بالتصوف والزهد آخر حياته (عبد القادر بللو، محطوط:٢٥).

تلاميذه وآثاره العلمية والثقافية :

من أظهر آثار عمر الوالي العلمية تلاميذه الذين خلفهم بعده. فقاموا بأشغال جادة فى التعليم وإحياء تراثه العلمي والثقافي بعده. ومن ضمن هؤلاء العلماء العباقرة أولاده الثلاثة: علي، وأحمد، وغروز، ومالم أمين.

قد تلمذ له كثير من العلماء العباقرة والأمراء الأفاضل والولاة النجباء، ومنهم: أمير زكزك مَالم علي طَنْ سيد، الأمير العالم الفصيح، وأمير زَكْزَكْ مَالمٌ كُوَاسَوْ، ومحمد أول بن يَرُو. وتعلم منه «مَالمَ ثَاني كُوفَنْ دُوكَا»، والقاضي أحمد زُلْقي بَن مُوىَ، ومَالمَ سَمْبُو مَيْتَسْئَنْ، وغَلَادِيمَ آدم بن دُوكَاجِي، ومَالمٌ غَرْقِي قاضي نَافَطَ، والمعلم غطَاطُو وزير الخليفة بصكتو، والمعلم حسن صكتو.

وأما من حيث التأليف فإن الشيخ عمر كاتب بارع. كتب فى النثر والنظم على السواء إلا أنه فى النظم أغلب.

وأكثر الفنون تناولا فى تصنفاته هي: الفقه، واللغة، والنحو، والصرف. وكتب كثيرا فى علم المنطق والتصوف. ومن هذه الكتب:

١. كتاب بيان المذاهب الأربعة (شبه مفقود)، ويربو على ٤٠٠٠ بيت.
٢. تحفة أصغار الطالبين لأمير المؤمنين فى علم الجهاد (شبه مفقود) منثور
٣. العلق النفيس على جيد النحوي المحقق (مخطوط)، كتبه فى بيان (لو) فى النحو فى اثني وتسعين بيتا.
٤. المغلق فى علم العروض (شبه مفقود).
٥. غاية الأماني فى علم العروض (شبه مفقود)، وفيه بضعة وعشرون بحرا
٦. كتاب رجال السند المسى بالرسالة

الميمونة (مخطوط)

٧. مبلغ الأماني فى بيان أمور الأولياء وأحمد التجاني، المسمى ألفية الطريق (منظومة ومطبوعة).

٨. بؤبؤ: قصيدة نظمها الشيخ فى ثلاثة عشر بيتا فى الألغاز، ثم شرحها فيما بعد.

٩. موضحة الإبدال، على سهولة بلا إشكال (مخطوطة) كتبه فى الصرف منظوما فى أربعمائة وأربعة عشر بيتا.

وقد ألف كتبا كثيرة، ذكر بعضهم حوالي ثلاثة وعشرين كتابا منها. وأكثر كتبه مفقود. ولم يعثر الباحث على ما طبع منها إلا كتاب الشيخ المسمى (ألفية الطريق).

صفاته وأخلاقه:

كان عمر متخلقا بأخلاق حميدة. كان معروفا بالكرم والحلم، والأناة. وكان ورعا وزاهدا عن الدنيا، ولاسيما فى أواخر حياته. كان رجلا صدوقا ومقيما على الحق، لا يزعزعه عنه هيبة حاكم، ولا يخاف فى قوله لومة لائم. وكان متصوفا مخلصا.

وقد وصف القاضي عمر إبراهيم (عبد القادر بللو، محطوط:٢٨-٢٩) حياة عمر الوالي بعد نبوغه فى ثلاث مراحل وهي:-

المرحلة الأولى: وذلك حين ولى منصب الوالي لإمارة زكزك. وكان مشغولا حيئذ بأخذ المظالم وردها.

المرحلة الثانية: مرحلة إهتمامه بالتدريس، وذلك قبيل انتقاله إلى قورنوالي وبعد ذلك. وقد توقف فى هذه المرحلة عن القيام بأعمال الإدارة، لكونه فى معزل عنها، فاشتغل حينئذ بأعمال التدريس والتهذيب.

المرحلة الثالثة: مرحلة التصوف، وذلك حين مال الشيخ إلى التصوف والزهد عن الدنيا وما فيها، علاوة على قيامه بأعمال التدريس.

وذكر القاضي عمر أن كل مرحلة ذكرها قد تخصص ولد من أولاد الشيخ الذي ولد فيها بما اتصف به الشيخ من مزاج الحياة.

لقد أنجب له ابنه أحمد غروز حينما عين منصب الوالي. ورثه أحمد غروز فى حياته السياسية حيث تولى منصب مَغَتَكَرْدَا (كاتب الدواوين). ولاه المعلم محمد لول المعروف بكواسو- وهو أمير زكزك حينئذ-ذلك المنصب. وتولى بعد ذلك منصب (تراك قرمي)، ثم عين وزيرا لإمارة زكزك، وعين فى الوقت نفسه رئيسا لمجلس الإمارة والإدارة. والجدير بالذكر أنه وزير ثان للإمارة منذ الجهاد. وأخيرا تولى منصب «مكام قرمي» حاكم بلدة «صوبا» إحدى ولايات كادونا المحلية، ولم يزل حاكما بها إلى أن توفى سنة ١٩٢٠م.

وفى مرحلته التعليمية أنجب له ولده الأمين، العالم النحرير الذي ورثه فى مجال العلم والثقافة. توفى فى عهد أمير زكزك طلحة بن يرو، سنتين بعد وفاة أخيه أحمد غروز حاكم «صوبا» وذلك فى سنة ١٩٢٢ الميلادية.

وفى مرحلة تفرغه للتصوف والتعليم أنجب له المعلم على الذي فاق أقرانه فى الزهد والتقشف، وميله الشديد إلى التصوف، بل يعتبر وليا خاصا مثل أبيه. غفر الله لهم أجمعين.

وفاته:

ولم يزل الشيخ عمر الوالي ساكنا بقورنوالي متصوفا ومعلما ومؤلفا حتى أدركه المنية فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي سنة ١٨٩٧ الميلادية. ولم يزل قبره مزار المسلمين فى «قورنوالي». رحمه الله تعالى.

ما كتب عنه:

وهناك بحوث كثيرة عن شخصية عمر الوالي والتي عثر عليها هذا الباحث هي كالآتي:-

١. «مساهمة عمر الوالي زاريا فى ميادين العلم والثاقفة والتربية الإسلامية» رسالة قدمها إبراهيم مشطو لنيل شهادة الليسانس فى اللغة العربية والدراسات الإسلامية، وقد قدم الرسالة لقسم الدراسات الإسلامية، جامعة بايرو كانو، فى سنة ١٩٨٢ الميلادية.

٢. "Contribution of four Refutable Scholastic Quarters of Zazzau with a particular Reference to two scholars ١٩th Century to the of the Development of Islamic Education in the Emirate". A research work written by Jummai Zainab Dikko، .A.T.C. A.B.U. Zaria

٣. وهناك كتاب فى هوسا غير مطبوع يسمى:
"Tarihin Galadima Amadu da Dansa Umaru Wali" by Abdulkadir Bello.

٤. وهناك بحوث مدونة فى المقالات والصحفات والشرائط الإذاعية تتحدث عن عمر الوالي ومساهماته العلمية أو الإدراية أو العامة. كما يوجد بعض الكتب العربية التي تحدثت عنه حيث تناولت طرفا من حياته ومساهماته، كالثقافة العربية فى نيجيريا، وديوان القاضي عمر إبراهيم، اللهم إلا أن هذه البحوث المذكورة من الرقم الأول إلى الرقم الرابع، قد تحدثت عن هذا العالم النحرير بصفة عامة، وغالبها تاريخية النزعة، إلا بحث إبراهيم مشطو، الذي ألم بشيء من الاحتياط عن مساهماته العلمية.

قيمة كتابيه : موضحة الإبدال وعلق النفيس في الدراسة النحوية والصرفية

أولا : أسلوبه فى كتاب الموضحة من حيث الصياغة والمضمون

يعد كتاب موضحة الإبدال فى عداد من كتب التصريف ذات مساهمة كبيرة فى الصرف العربي. ألفه الشيخ عمر الوالي فى أربع مائة وخمسة عشر بيتا(٤١٥) شعريا مرجوزا، فى اثنتين وأربعين صفحة. ذكر فيه المسائل التي تتعلق بالإبدال واستقصى المعلومات المتعلقة بالموضوع استقصاء؛ لا يترك صغيرة ولا كبيرة منها إلا أحصاها. وقد بدأ فيه بالتعريف، وتقدم فيه إلى آخر نقطة فى الإبدال، ثم زيله بعلم مخارج الحروف. والنسخة التي اعتمدها هذا الباحث محطوطة، وجدها من الحاج عثمان، رحمه الله، وهي النسخة التي اعتمدها بعض الباحثين، الذين أقدموا عليها بالشرح والتحليل.

وعمر الوالي فى كتابه هذا يسير على مسيرة من سبقه من النحاة العرب والأفارقة، حيث يعرض الفكرة ويتابعها بالأدلة. وكان يعتني بذكر اللغات المختلفة فيما يتعلق بموضوع معين، نحو قوله من البيت السابع والعشرين والثامن والعشرين حيث يقول (موضحة الإبدال ،مخطوط: ص ٢):-

ما لتميم من لغات كشكشة
منه كذا عنعنة وكسكسة
عجعجة عند قضاعة كذا
إبدالنا الخطاب كافا فخذا

ويعتني بذكر المصادره كقوله فى البيت التاسع والعشرين، حيث ذكر ما أخذه من تسهيل ابن مالك(موضحة الإبدال ،مخطوط: ص ٢٥-٢٦):-

نص بتسهيل طويت دائما
وزاد فى سواه هاء فاعلما

ويتعرض الخلاف بين نحاة الكوفة ونحاة البصرة نحو قوله فى البيت التاسع وستين:

نحاة كوفة فعال والذي
لأهل بصرة فعائل خذا

وتأثرُ المؤلف بابن مالك ظاهر فى نصوص كتابه. فقد أكثر من ذكر آرائه والاستعانة بأبياته فى نصوص هذا الكتاب. واعتنى كثيرا بذكر الأمثلة الواردة فى ألفية ابن مالك. وبالجملة فقد أخذ عمر الوالي محمد بن مالك قدوة له فى منهجه للتأليف الصرفي يقتدي به فى المباني والمعاني وصيغ أبيات شعره المرجوزة، كما اتخذ ابن الجزري قدوة له فى الكتابة عن علم مخارج الحروف.

أما من ناحية الصياغة، فإن أسلوب الشيخ عمر الوالي فى هذا الكتاب لا يختلف عن أسلوبه فى غالب مؤلفاته العلمية التي وضعها في منظومة كمؤلفاته في الفقه والنحو والتصويف. وقد اختار المؤلف أن يضع مؤلفاته نظما متماشيا مع أسلوب من سبقه من نحاة العرب والأفارقة، كابن مالك والسيوطي وعبد الله بن فودي. والسبب فى اختيار هذا الأسلوب واضح، وذلك أن النظم أيسر للحفظ. ولما كان الأسلوب العلمي بعيدا عن الزخرف والخيالات وقريبا جدا إلى الفكر والعقل صار أحوج إلى النظم لأداء معلومات جامة فى ألفاظ قليلة ولوضوح العبارة مع سهولتها.

وقد كان الوالي عمر يعتمد السهولة فى ألفاظه وعباراته والوضوح فى تراكيبه وعرض أفكاره، والموضوعية فى ترتيب أبوابه وتناسق فصوله، والدقة فى مناقشته مباحثه ومسائله، وأجلى شهادة لما ذكر ما كتبه فى الكتاب الذي نحن بصدده حيث قال(موضحة

الإبدال ،مخطوط: ص ٢)

يسرتها غاية تيسير لأن
يفهمها الذكي والفطن
تبصرة لمبتد وتذكرة
لمنته وللخفي مسفرة
سميتها موضحة الإبدال
على سهولة بلا اشكال

ومن المشهود به أن اسم الكتاب عينه يحمل معنى التوضيح والتسهيل لمضمون الكتاب، ومن تتبع الكتاب بدقة يلاحظ فيه صدق المؤلف فى قولته بدون خفاء.

ومراعاة الموضوعية لم تكن سمة لموضوعات كتاب الموضحة فحسب، بل إنها ظاهرة صريحة فى مؤلفاته غالبا حتى فى موضوعات التأليف. فإن تسمية هذا الكتاب بموضحة الإبدال على سهولة بلا اشكال من أظهر الأدلة على تدقيقه في اختيار الموضوع، لأنه لم يكتب فى موضوعات التصريف كلها بل اختار موضوعا يحل فيه ما يشكل على طلاب زمانه فى فن التصريف. ومن نظر إلى أبواب كتابه يشفي بذلك غلته.

ومن مؤشرات إجادة الشيخ فى الصياغة حسن تصرفه فيما يسمى بحسن الإبتداء مع براعة الاستهلال، وحسن الإنتهاء مع براعة المقطع. فالأول يظهر فى مطلع الكتاب حيث بدأ بالحمدلة والصلاة والسلام على نبيه وذكر سبب وضع الكتاب والدعاء لتيسير العمل وذلك من قوله(موضحة الإبدال ،مخطوط: ص ٢):

الحمد لله على ابدال
كفر بالإسلام الرفيع العال

فإن كلمة «إبدال» تشير إلى مضمون الكتاب وهذا براعة استهلال. وكذلك ما أسرده فى نهاية الكتاب من الدعاء والصلاة على النبي، وقوله:

#ونظمنا آذن بالنهاية#

وهذا إشعار بوصول التصنيف إلى الختام.

وكان المؤلف بارع فى أخذ الأبيات من غيره، ولا يتهم بالسرقة الشعرية، لأخذه عن كتب مشهورة فى فن التصريف والقراءة، منبها عليها وغير منبه لشهرتها. وكان يأخذ بهذا النوع من التضمين من وجوه مختلفة، استعانة تارة ورفوا وإبداعا تارة أخرى. والغالب عليه هو الاستعانة، حيث يضمن بيتا أو أكثر بحذافيره متضمنا لألفاظه ومعناه فكأنه هو قائله.

ومن أمثلة تضمينه للإستعانة من دون إحالة إلى مصدره، قوله في باب النقل فى البيت (٢٥٣) (عمر الوالي: موضحة الإبدال ،مخطوط: ص ٢٥-٢٦):

وما للإفعال من الحذف ومن
نقل فمفعول به قمن
نحو مبيع ومصون وندر
تصحيح ذي الواو وذي اليا اشتهر

فهذان البيتان مضمنان من كلام ابن مالك فى الألفية من فصل لساكن صح، حيث ذكر البيتين بالضبط (ألفية بن مالك،: ص: ١٩١).

ومن ذلك أيضا قوله فى الخاتمة فى فصل مخارج الحروف البيت (٣٣٢-٣٣٤):

نص على وجوبها الجزري
فقال فى منظومه المشتهر
إذ واجب عليهم محتم
قبل الشروع أولا أن يعلموا
مخارج الحروف والصفات
ليلفظوا بأفصح اللغات

وقد ضمن البيتين الأخيرتين مع التنبيه على مصدرها في البيت الأول رغم شهرة كتاب الجزري بين كتب القراءة. وقد ورد البيتان من متن الجزرية فى معرفة الآيات القرآنية، البيت الخامس والسادس من مقدمة الكتاب (الشيخ زكريا الأنصاري:ص٩).

أسلوبه في الموضحة من ناحية المضمون:

أما من ناحية المضمون فليس من شك أن أسلوب المؤلف أسلوب تمشى مع متطلبات هذا العصر في التأليف. بدأ بالمقدمة ثم لب الموضوع وانتهى بالخاتمة.

ففى المقدمة حمدل وصلصل حسب منهج العلماء المسلمين منذ أن فجر الإسلام أضواءه، وذلك قوله(عمر الوالي: موضحة الإبدال ،مخطوط: ص١)

الحمد لله على إبدال
كفر بالإسلام الرفيع العال
على يدي محمد نبيه
رسوله حبيبه صفيه
صلى عليه الله ثم سلما
وءاله مع الصحاب الكرما

ثم تصدى لذكر العامل لوضع الكتاب وهو سؤال الطلبة له فى طلب إيضاح موضوع الإبدال فى الصرف لينتفع الناس به. وذلك قوله(عمر

الوالي: موضحة الإبدال ،مخطوط: ص١):

وبعد فالطلاب فى التماس
إيضاح ابدال لكل الناس
ترددوا إلى بالإلحاق
وأنا لم أعزم على الإسعاف
فجئتهم بهذه الأرجوزة
عديمة النظير فى الإفادة
اسعاف سؤلهم وكشف غمهم
كل ما هي أزيد والمهم

ثم تقدم لذكر اسم الكتاب وما ذيله به وهو علم مخارج الحروف، لأهميه، وإهمال الطلبة له فى زمانه، وذلك قوله(عمر الوالي: موضحة الإبدال ،مخطوط: ص٢):

سميتها موضحة الإبدال
على سهولة بلا اشكال
ذيلتها بنكتة فى علم
مخارج الحروف عند القوم
وهي مهمة وجل الطلبة
أهملها مع أنها مستوجبه

وأخيرا أعقب المقدمة بالدعاء حيث قال:

فالله يهدينا إلى الصواب فى
أمورنا حتى نرى لا تقتفي
إلا مراضيه ويخطينا بكل
سعي قبولا يعد تيسير حصل

وبعد إنهائه للمقدمة، دخل فى لب الموضوع حيث فصله فى ستة عشر موضوعات، وهي: أقسام الإبدال وحروفه وحده، وباب الهمزة والحروف التي تبدل منها وهي الألف والواو والياء. والياء والحروف التي تبدل منها وهي الهمزة والألف والواو. وأحكام اجتماع الهمزتين. والواو والحروف التي تبدل منها وهي الهمزة والألف والياء. والطاء والحرف الذي تبدل منه وهو التاء. والدال والحرف الذي تبدل منه وهو التاء. والميم والحرف الذي تبدل منه وهو النون. والهاء والحرف الذي تبدل منه وهو التاء. وأحكام الهمزة المفردة. والنقل. والحذف. والقلب. وتتمة فى استيفاء الكلام على ابدال جميع الحروف على ترتيبها فى المخارج. وتنبيه. وخاتمة وفيها فصلان:

أ. فى مخارج الحروف

ب. فى بناء مثال من مثال

قد بدا للكتاب أن يختتم لكتابه من العجز للبيت الثلاثين من الفصل الثاني فى الذيل وهو فصل بناء مثال من مثال حيث قال:»#ونظمنا آذن بالنهاية#» إلى نهاية الكتاب. وقد اختتم بتسع وعشرين بيتا. فكأنه قسم الفصل قسمين تسعة عشر بيتا وصدر بيت لموضوع الفصل، وتسعة عشر بيتا وعجز بيت للخاتمة.

وتضمنت خاتمة الكتاب تاريخ نهاية تصنيف الكتاب حيث قال(موضحة الإبدال ،مخطوط: ص ٣٩):-

.....

ونظمها آذن بالنهاية
من عصر يوم الجمعة المحترم
لأربع خلون من محرم
سنة احدى وثمانين التي
عن مائتين بعد ألف الهجرة

ومدح الأرجوزة فى أحد عشر بيتا؛ وصفها بأوصاف بليغة ذات جمال مصور، ومنها قوله (عمر الوالي: موضحة الإبدال ،مخطوط: ص٣٩)

أرجوزة بديعة جريدة
ليس لها مثل ولا شبيهة
إذ لم يؤلف مثلها فى كتب
النحو والتصريف فى الترتيب
والجمع والإيضاح والتمثيل
فى كل مسائل لتبيين الخفي
ألفاظها حلو لمن قد ذاقها
فالشهد كالحنظل في جانبها
تنظر أعمى والذي كان أصم
تسمعه تنطق شخصا ذابكم

وليس من شك أن الكتاب استحق قدره وحظي بقسط وافر من الإتقان والجودة. ولكن لا يخفى من وصف الكاتب للكتاب من المبالغة الإسهاب. وقد جره إلى ذلك قصده لتكثير أبيات الأرجوزة.

وتضمن كذلك فى الخاتمة سمة الكاتب، أو اسمه ولقبه الذي اشتهر به حيث قال(موضحة الإبدال ،مخطوط: ص ٣٩):-:

طويلب سمته أم هُوْ عمر
ناظمها لكن بوال اشتهر

وكذلك تقدم فى الخاتمة لذكر من أهدى إليه الكتاب، وهذا طبعا وضع قديم لأن التأليف فى عصرنا الراهن يقتضي وضع الإهداء فى الصفحات الأولى، وذلك قوله:-

نظمتها للكنوي محمد
والهاشمي أي أبي محمد
وكل من أراد أن ينتفعا
بها من الطلاب أو من برعا

ثم أتم خاتمته أخيرا بالتواضع لربنا وطلب الدعاء لمن احتظ بدراسة الكتاب، ودعا الله تعالى، يطلب منه العفو والغفران والتوفيق للأعمال الصالحات، و الصلاة والسلام على

نبيه وآله وصحبه. اللهم اغفره وارحمه واعف عنه وعافه.

ثانيا: أسلوبه في علق النفيس المعلق على جيد النحوي المحقق في «لو»

لم يختلف هذا الكتاب عن شابقه من حيث الصياغة. ففي المقدمة بدأ الشيخ بالحمدلة والصلصلة، وانتقل إلى بيان سبب وضع ال منظومة وهو سؤال بعض له أن يكتب لهم بيانا نحويا يوضح لهم أمثال «لو» الشرطية وأساليبها، فجاء بهذه الأرجوزة في اثنين وتسعين بيتا.

وأهم مراجعه في الأرجوزة هو مغني اللبيب لابن هشام، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي، والمفصل للزمخشري، وتسهيل الفوائد لابن مالك. والناظم من حيث المضمون قام بتحليل كل جل ونفيس يتعلق بلو وأساليبها في الكلام العربي، واعتنى كذلك بذكر اختلافات العلماء عنها واستعملاتها، ومطلع الكتانب شهيد على هذا حيث يقول:

قد وردت«لو» لمعان ستة ... عرض وتحضيض تمن قلة

ومصدرية وشرط واختلف... في كونها أصلا لبعض ذي عرف

يقول إن «لو» وردت في الكلام العربي لستة معان:

١- عرض؛ نحو: لو تزورنا فنضيف

٢- تحضيض؛ نحو: لو تتصدق فتأجر

٣- تمن؛ نحو قوله تعالى: فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين»(١)

٤- تقليل (عبر عنه بقوله: قله) نحو: «تصدقوا ولو بتمرة»(٢) وقيل إن التقليل مستفاد من المقام. ومنه: «فالتقوا النار ولو بشق تمرة»(٣) متفق عليه

٥-شرط: وتكون «لو» للتعليق في الماضى، وهو الأكثر والغالب، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم﴾٤ ، وإذا وليها مضارع أول بالمضي. نحو: «لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتُّم»(٤). وتكون للتعليق في المستقبل مرادفة لإن الشرطية، نحو: «لو يأتيني زيد لكنت مسرورا»، وهذه قليلة الاستعمال بالنسبة للأولى، وإذا وليها ماض تخلص للاستقبال، كما أن «إن» الشرطية كذلك نحو: «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ»(٥)

٦- مصدر. وهي التي تقع بعد «ود»، و«يود»، نحو: ود الولد لو أن أباه حي.

وهذه هي معانى «لو» التى ذكرها عمر الوالى (رحمه الله). ثم ذكر أن بعض العلماء يرون أن الشرطية هي المعنى الأصلي للو وبعض تلك المعاني تكتسبه «لو» بالاحتمال، وأن في ذلك خلاف بين العلماء. ثم تقدم في بيان آراء العلماء وتحليل مواقعها في مختلف أساليب العربية بعد العرض الموجز الذي قدمه في البيتين.

ثالثا: تعقيب واقتراح:

لا يزال مجهود عمر الوالي كبيرا بالنظر إلى منهجه وأسلوبه فى تأليف كتاب موضحة الإبدال وعلق النفيس، وباعتبار هذا القدر الذي يحتله من المكانة الرفيعة فالدراسة النحوية خاصة، قام عدد من الطلبة بالكتابة عنه وعن مؤلفاته النحوية والصرفية وغيرها، إلا أن أكثر هذه المؤلفات بحوث علمية أكادمية غير مطبوعة.

ومن الذين كتبوا عنه:-

١. مشطو إبراهيم (الدكتور): مساهمة عمر الوالي زاريا فى ميادين العلم والثقافة والتربية الإسلامية، بحث لنيل درجة الليسانس فى الدراسات الإسلامية، بجامعة بايرو كانو عام ١٩٨٢م.

٢. سليمان علي ليمن: الشيخ عمر الوالي زاريا ومساهمته فى اللغة العربية، بحث لنيل درجة الليسانس فى اللغة العربية، بجامعة بايرو، كانو ١٩٦٥م.

٣. سليمان علي ليمن: موضحة الإبدال: بحث مقدم لقسم اللغة العربية والأفريقية، لنيل درجة الماجستير فى اللغة العربية (السنة مفقودة).

٤. أحمد الرفاعي أبو بكر تحقيق وشرح العلق النفيس على جيد النحوي المحقق، بحث لنيل درجة الليسانس فى اللغة العربية بجامعة بايرو، كانو، ١٩٩٠-١٩٩١م.

٥. أحمد الرفاعي أبو بكر: موضحة الإبدال على سهولة بلا اشكال، تقديم وتحقيق.

خاتمة

الشيخ عمر الوالي زاريا من العلماء في غرب أفريقيا الذين تركوا كمية

كبيرة من المخطوطوت في العلوم العربية الدينية واللغوية التي لم تشاهد ضوء الطباعة. فهذه الورقة المتواضعة تبرز مصنفات هؤلاء العلماء النحوية مع التركيز على كتابي الشيخ عمر الوالي زاريا: موضحة الإبدال على سهولة بلا إشكال والعلق النفيس في جيد النحوي المحقق في «لو»، وأخيرا تنصح الورقة بنصائح تساعد في تقويمها والاستفادة منها للقراء والباحثين أجمعين.

إن شخصية عمر الوالي شخصية فذة ساهمت فى المجال العلمي أسمى مساهمة فى نيجيريا، وكتاباه موضحة الإبدال والعلق النفيس يبقيان مرجعا هاما للمبتدئين والمتخصصين على السواء. وإنه لمسئولية كبيرة علينا أن نقوم بتجهيز الكتابين وتقريرهما لمعاهدنا العلمية. هذه المسئولية التي تبقى على عاتقنا تجاه عدد كبير من تراثنا العربي في غرب أفريقيا الموروث من سلفنا الغابر رحمهم الله وأرضاهم.

المراجع:

القرآن الكريم.

الأنصاري، الشيخ زكريا (١٩٩٢): شرح متن الجزرية فى معرفة تجويد الآيات القرآنية الإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية.

محمد صالح حسين (١٩٨٧م): مساهمة علماء غرب أفريقيا في نمو وتطور النحو العربي: دراسة لمنطقي تمبكتو وبلاد هوسا في الفترة ما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر الميلاديين.بحث قدمه إلى قسم اللغة العربية، جامعة بايرو كنو، لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية.

ابن مالك، محمد: ألفية ابن مالك فى النحو والصرف، بهامش ألفية ابن غقيل، الطبعة الجديدة المصححة. دار المعارف بالمغرب، سنة الطبع غير مذكورة.

الوالي، عمر: بؤبؤ (مخطوط)

الوالي، عمر: شرح مسائل الشيخ عبدالقادر بن المصطفى(مخطوط).

الوالي، عمر: علق النفيس على جيد نحوي محقق في «لو» (مخطوط).

الوالي عمر: موضحة الإبدال (مخطوط).

Bello، A. Tarihin Galadima Amadu da Dansa Umar Wali، unpublished.

الهوامش

١ . من سورة الشعراء من الآية ١٠٢

٢ . السيوطي، جلال الدينى (١٩٥٤م): شرح جامع الصغير، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ج١، ص٢٢٤ حديث حسن روي عن أنس رضي الله عنه.

٣ . النواوى (١٩٨٥): رياض الصالحين مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، لبنان، ص٨٠

٤ – آل عمران : ١١٠

٤ – من سورة الحجرات من الآية ٧

٥ . من سورة النساء من الآية:٩